

تغيير السلوك عند الغزالي من منظور علم النفس التربوي

* يوسف آيدين

ملخص

إن التربية في جوهرها عملية تغيير للسلوك الإنساني، وإحداث تغييرات مرغوب فيها حيث يحتاج الفرد دوماً إلى تغيير في سلوكه نحو الأفضل وهو - بطبعه - يتأثر بما حوله من ظروف، حيث يكتسب أخطاء سلوكية إيجابية وأخرى سلبية، وهو بطبعه يخطئ، وقد عبر عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"، ويتناول هذا البحث دراسة تغيير السلوك الإنساني عند أحد العلماء المسلمين وهو أبي حامد الغزالي، وسوف تتم دراسة فكر هذا العالم من خلال إلقاء الضوء على تغيير السلوك عنده من منظور علم النفس التربوي.

الكلمات المفتاحية: الغزالي، التربية الإسلامية، تغيير السلوك

Abstract

Change of Behavior According to al-Ghazali from the Perspective of Islamic Education

The essence of education is a process of changing the human behavior and making that anyone always needs to change any behavior forwards and being better. And the thing that according to them he could have positive behavior styles or negative ones. Though he makes mistakes naturally and being wrong sometimes. The Prophet Muhammad said that everyone sometimes is wrong and the best does for wrong who ask Allah's forgiveness. This survey has an approach about changing the human behaviours from Abu Hamed Al-Ghazali's point of view. Also, it includes his way of thinking by focusing on his view in changing human behaviours from educational psychology too.

Keywords: Al-Ghazali, Behavior change, Islamic education

Atıf: Yusuf Aydın, "تغيير السلوك عند الغزالي من منظور علم النفس التربوي", *KTÜİFD*, c. 2 sy. 1, Bahar/2015, s. 123 - 135.

* Öğr. Gör., Karadeniz Teknik Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı, yusufaydin@ktu.edu.tr

مدخل

تغيير السلوك هو عبارة عن تعديله عن طريق تغيير الظروف المحيطة به، سواءً أكانت منها الظروف التي تسبق ظهور السلوك أم الظروف الجديدة التي تحدث بعد السلوك.¹

لا شك أن التطور الإنساني - نحو الأفضل - في مظاهره الجسمية والعقلية والاجتماعية والإنفعالية والروحية، وانتقال الفرد من مرحلة إلى أخرى أمر يهيم الناس جميعاً، سواءً أكانوا آباء وأمهات أم مربين أم باحثين نفسيين أم تربويين أم أطباء وغيرهم.²

تغيير السلوك يعتبر من أهم أهداف كل من يهتم بهذه العملية، لكن هذا يكون بالتدرج أثناء مراحل التربية والتعليم شيئاً فشيئاً ولا يكون فجأة، فالتدخل على سلوك المتعلم مباشرة قد ينتج نتائج غير مرغوبة.³

وقد اهتم الرسول المرابي صلى الله عليه وسلم بمعالجة السلوك الإنساني في جميع مجالات الحياة، بما يعود على الفرد والمجتمع بالخير وربط ذلك بعقيدة الإيمان وتعامل مع جميع مراحل العمر بلا استثناء واتسم خطابه التربوي بالوضوح والمنطقية والتلطف ومراعاة مقتضى الحال، وقد اتضح ذلك الاهتمام النبوي بالسلوك الإنساني من خلال الجوانب التالية:

أ- الإرشاد إلى ممارسة السلوك النافع

حيث جاء في الحديث الشريف وهو يخاطب أنساً رضي الله عنه: «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك، فالرسول صلى الله عليه وسلم، حث أنساً على التزام أدب الإسلام، عند الدخول على البيت مبيناً المنفعة المترتبة على ذلك السلوك.

كما رغب الرسول صلى الله عليه وسلم بأئاماط من السلوك يترتب عليها تكفير الذنوب وزيادة الحسنات ويتضح ذلك من خلال قوله صلى الله عليه وسلم «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط»⁴.

- 1 أبو حماد، ناصر الدين، تعديل السلوك الإنساني وأساليب حل المشكلات السلوكية، (إريد، عالم الكتب، 2008)، ص.24.
- 2 شادية أحمد، التل، علم النفس التربوي الإسلامي، (دار النفائس، 5002)، ص. 81
- 3 (Nobel 3 (editor), Mustafa Köylü (2011), "Gelişimsel Basamaklara Göre Din Eğitimi", 102-انظر
- 4 رواه مسلم برقم 251.



ب- تعزيز السلوك الإيجابي

كان من عاداته صلى الله عليه وسلم تعزيز السلوك الحسن من خلال الثناء على صاحبه ومدحه، ومن المتعارف عليه اليوم فيما يخص استراتيجيات تعديل السلوك عند العلماء المعاصرين، أن المنهج الإيجابي «يركز على تعزيز السلوك المناسب أكثر مما يركز على معاقبة السلوك غير المناسب، والسبب الرئيس وراء ذلك، هو كون التعزيز أكبر أثراً من العقاب على المدى الطويل، فنتائج التعزيز تدوم أكثر من نتائج العقاب»⁵.

وجاء في الهدي النبوي «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر أنا، قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر : أنا، قال : فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر : أنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اجتمعن برجل قط هذه الخصال إلا دخل الجنة»⁶.

ج- التحذير من الوقوع في ممارسة سلوك سلبي

والأمثلة على ذلك في السنة النبوية كثيرة، فمنها - على سبيل المثال لا الحصر قوله صلى الله عليه وسلم «لا تكثروا الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»⁷. وفي موضع آخر حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض المنزقات السلوكية الخطيرة، التي قد يقع فيها طلاب العلم حيث عبر عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتجتازوا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار»⁸.

د- الشروع في تعديل السلوك السلبي

حيث اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعديل وتصويب كافة أتماط السلوك السلبي عند ملاحظته له، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء «عن عمر بن أبي سلمة قال : كنت في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال لي : يا غلام سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك»⁹.

وقد سارع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تعديل سلوك رجل من أصحابه في مجال

5 جمال الخطيب، تعديل السلوك، (جامعة القدس المفتوحة، عمان، 7991) ص. 87.

6 رواه مسلم برقم 1707.

7 رواه البخاري في الأدب المفرد برقم 1061.

8 رواه ابن ماجه برقم 254.

9 رواه مسلم برقم 2022.

العادات، مبيناً الأثر السلبي الناتج عنه، ففي الحديث « عن أبي الزاهرية قال : كنا مع عبد الله ابن بسر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، فجاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبي يخطب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: « اجلس فقد آذيت »¹⁰.

هـ- نوعية الأفراد بمعايير السلوك المقبول وغير المقبول

فالرسول صلى الله عليه وسلم حرص على تكوين البصيرة والمعرفة بمقاييس السلوك سواء أكان حسناً مقبولاً أم سيئاً ملفوظاً، ومن الشواهد على ذلك، بيانه صلى الله عليه وسلم لأحد معايير السلوك النافع الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه لعباده حيث جاء في الحديث الشريف «يأيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»¹¹، فمن معايير السلوك المقبول كما جاء في الحديث السابق التزام الاعتدال فيه والمداومة عليه .

آراء الغزالي في النفس الإنسانية وسلوكها

اهتم الغزالي بأسباب السلوك ويعتبر أن كل سلوك له نواح ثلاث : إدراك، ووجدان، ونزوع، ويحدث عن الدوافع الفطرية والمكتسبة، وعن الانفعالات والفروق الفردية، وعن السلوك المكتسب، وطريقة التعلم، وكسب العادات الصالحة، والتخلص من العادات الضارة، كما يحدث عن الصراع بين الدوافع فطرية ومكتسبة، وأنها يجب أن تحقق أهدافاً دينية، أما الدافع الاجتماعي، فهو فطري، فتكوين المجتمع ضرورة، لتوافر الحاجات الضرورية، التي لا يستطيع الإنسان العيش بدونها، ونمو المجتمع وتطوره يخلقان حاجات جديدة، ومن تطلع من الأفراد إلى تحقيق سعادته معرفة الله، اختار المسالك التي تحقق غايته وإن تعرض للصراع مع حاجات الجسم، وحاجات المجتمع، ومتطلبات العلم والدين.¹²

وقد ألف أبو حامد الغزالي وصنف في النفس البشرية وسلوكها، في كتاب «إحياء علوم الدين» حيث جمع فيه آراءه التي أفرد لها مصنفات صغيرة في شكل رسائل أو أجوبة على أسئلة وجهها إليه بعض المريدين أو اتخذها منهجاً له ليشرح آراءه إجابةً على سؤال يتصل بموضوعها التربوي، أما كتاب «ميزان العمل» فهو مرجع للمدارس السلوكية الحديثة، ولا يفوتنا ذكر رسالة «أيها الولد»، فأبو حامد الغزالي من كبار المفكرين الذين اهتموا بالأخلاق ودرستها على نحو منهجي وصوفي يمزج فيه بين العلم والعمل، وقد اختلط عنده الدرس الأخلاقي بالدرس التربوي

10 رواه النسائي برقم 1399.

11 متفق عليه.

12 محمد أحمد جاد صبح، التربية الإسلامية [دراسة مقارنة]، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1987)، ص. 441.

العلمي بدراسة النفس وأحوالها .

وقد اتفق كل من تناول مؤلفات الغزالي على علو مكانته في مجال المعرفة، ورسوخ قدمه فيها، وتميز إلى جانب الفقه والكلام والفلسفة والتصوف بخبرته بعلم النفس . فقد كان مريباً عالماً بالنفس البشرية وخفاياها، متأملاً فعاليتها وأحوالها، محللاً بارعاً للسلوك و«خليجات الضمير»¹³ .

وقد ارتبطت حياة أبي حامد العملية والعلمية بالتربية والتدريس فقد مارس الإمام الغزالي التعليم، وتعلق به، وتميز به . وآثاره بصورة عامة، دالة على منحاه التعليمي التربوي، وقد شهد عصره إنشاء المدارس في حواضر إسلامية عديدة . وظل معلماً في بغداد في المرحلة الأولى من حياته؛ يلتفت حوله ثلاثمائة تلميذ، جاء في «المنقذ من الضلال»: «وأنا مُنَوِّمٌ مبتلىٌ» بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس، من الطلبة ببغداد»¹⁴ .

وتناول أبو حامد علم الأخلاق في جل أعماله برؤية تحليلية تجعل منه فيلسوفاً أخلاقياً في تاريخ الإسلام . فقد نظر إلى النفس الإنسانية في نزوعها واضطرابها، وما يختلج فيها من أهواء، وما يعترضها من أوهام وخيالات، وتناول الفضائل والرذائل بالدرس والتحليل فأبان عن خبرة بالنفس الإنسانية، فقد عرض لمسألة الخلق في كثير من مؤلفاته، ومنها الإحياء، فبحث في الخلق ماهو ويم يكون حسناً، وهل يقبل التغيير؟ وكيف؟ ويم يعالج الخلق السيئ والرذيلة؟¹⁵

والغزالي يرى أن النفس كالبدن لا تخلق كاملة، بل تكتمل بالتربية والتهديب، وأن العادات والأخلاق تتغير بتطور الإنسان؛ فأقام منهجه في الأخلاق على مجاهدة النفس لاكتساب الفضيلة، والفوز بالسعادة . وهو يرى أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها .

والمأمل في آثار الغزالي يجد أنه أقام الأخلاق على البعد النفسي، فالبعد الاجتماعي ثم البعد الديني، ومنطلقه في كل ذلك قابلية الأخلاق والسلوك للتعديل . والمراد بالتعديل ما تحدثه التربية من زرع قيم إنسانية ترقى بالكائن إلى مدارج السمو، وتجعل منه مواطناً صالحاً ينشد سعادة الدارين .

والغزالي عاصر مجتمعاً متحلاً، وحين أراد الغزالي أن ينظر في أسباب فساد مجتمعه وطرق علاجه وإصلاحه؛ فكر في القوانين النفسية التي يخضع لها السلوك الإنساني، فرجع إلى الأصول

13 عبد الكرم العثمان، الدراسات النفسية عند العرب والغزالي بوجه خاص، (القاهرة مكتبة وهبة، 1962)، ص.9.

14 ابو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال: تحقيق د. عبد الحليم محمود، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964)، ص.25 .

15 محمد يوسف موسى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، (القاهرة، مؤسسة الخانجي، 1994)، ص.181.

النفسية المبثوثة في القرآن؛ باعتباره دعوة إلى الاستقامة على الطريقة، وهداية للبشر إلى الطريق المستقيم. كما استفاد من الدراسات الفلسفية السابقة، ومن المباحث النفسية، لدى علماء الكلام، لصلتها بالعقيدة الدينية، فألم إماما واسعا بكل النظريات والمناقشات التي دارت حول النفس سواء ما كان منها من مصدر يوناني أو إسلامي، وسواء أكان الإسلامي منها يستمد من القرآن والحديث، أو كان يعتمد على دراسات الصوفية وآراء المتكلمين ونظريات الفلاسفة والصوفية¹⁶.

وفي كتابه «إحياء علوم الدين» حدد تلك القوانين التي يخضع لها السلوك؛ لأنه لا سبيل إلى الإصلاح بغير تحديد لتلك القوانين، وإلا كيف يمكن علاج النفوس المريضة؟ «وهذا ما فعله الغزالي في الإحياء... تكلم على كل ضرب من ضروب السلوك ضربا ضربا؛ وبحث عن دوافعه الفطرية والمعدلة، ووصف أحوال الفرد حين يسلك متأثرا بالبيئة والمجتمع وينزل إلى خضمه ويجمد عند تقاليد، ثم يبين كيفية السمو بهذا السلوك في ضوء السنة والمعرفة بالله، هذه المراحل الثلاث هي التي طبقها الغزالي عند الكلام عن كل باب من أبواب علم النفس، الدوافع، ثم الظواهر، ثم التسامي¹⁷.

تغيير السلوك الإنساني من وجهة نظر الغزالي

استطاع الغزالي في كتابه «الإحياء» أن ينفذ إلى خفايا النفس فيحلل صفاتها تحليلا دقيقا، ويبين بطريقة موضوعية الوسائل المؤدية إلى القضاء على الخلق المذموم، واكتساب الخلق الحمود. ومزج الغزالي الفكر الأخلاقي بنظرية التربية، فجعل سلوك الإنسان قابلاً للتعديل والتغيير من سيء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، ورفض القول بأن أخلاق الإنسان خاضعة للطبيعة والمزاج الذي لا يقبل التعديل، خاصة الذين جعلوا الخلق صورة الباطن كما أن الخلق صورة الظاهر، وكما أن الخلق الظاهري لا يتغير، وكذلك الخلق الباطن لا يتغير وإن أي محاولة في تغيير خلق الإنسان، سوف يكون مصيرها الفشل.

وقد أشار الغزالي إلى هذه القضية حيث صرح بأن كل كائن حي، يمكن تعديل سلوكه وتقويم خلقه، حتى الحيوان نفسه؛ فإنه قابل للتعديل والتغيير في سلوكه، حيث يشير إلى ذلك بقوله: «لقد ظنّ بعض المائلين إلى البطالة أن الخلق كالحلق، فلا يقبل التغيير. والتفت إلى قوله عليه السلام: «فرغ الله من الخلق». وظن أن المطمع في تغيير الخلق، طمع في تغيير خلق الله عز وجل، وذهل عن قوله عليه السلام: «حسنوا أخلاقكم». وإن ذلك لو لم يكن ممكناً، لما أمر به، ولو امتنع ذلك لبطلت

16 المرجع السابق، ص11.

17 عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند العرب والغزالي بوجه خاص، ص8.

الوصايا والمواظب والترغيب والترهيب، فإن الأفعال نتائج الأخلاق، كما أن الهويّ إلى أسفل نتيجة النقل الطبيعي، فلم يتوجه الملام إلى أحدهما دون الآخر. بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله، وتغيير خلق البهائم ممكن، إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس، والكلب من الأكل إلى التأدب، والفرس من الجماع إلى السلاسة، وكل ذلك تغيير خلق؟ والقول الشافي فيه أن ما خلق الله سبحانه قسماً: قسم لا فعل لنا فيه، كالسماء والكواكب، بل أعضاء أبداننا وأجزائها، وما هو حاصل بالفعل، والقسم الثاني ما خلق وجعلت فيه قوة لقبول كمال بعده، وإذا وجد شرط التربية. وتربيته قد تتعلق بالاختيار، فإن النواة ليست بتفاح، ولا نخل، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلًا بالتربية، وغير قابلة لأن تصير تفاحاً، وإنما تصير نخلًا إذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها. فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا، ونحن في هذا العالم عجزنا عنه، ولكن لو أردنا قهرهما، واسلاهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بهذا، وصار ذلك شرط سعادتنا ونجاتنا»¹⁸.

– خطوات تغيير السلوك عند الغزالي

إن أول خطوة يرشد إليها الغزالي في تغيير السلوك وتعديله، أن يتعرف الإنسان على عيوب نفسه ويعترف بها، وهذا أمر يصعب أن تتحقق منه أو تعترف به ولذلك أشار الغزالي إلى أمور، يسترشد بها الإنسان إذا أراد أن يُصلح نفسه، وهي:

الأول: أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، خبير بخباياها، عالم بأسرارها، يتعلم منه ويأخذ عنه ويسترشد بنصائحه وإشاراتِهِ في مجاهدة نفسه وكيفية ترويضها؛ لأن الأمر في ذلك يحتاج إلى معلم ثقة وشيخ قدوة، ومجالسة الصالحين عبادة، وخاصة مجالسة أهل ذكر الله، الذين خلصهم الله لنفسه واصطفاهم ونقاهم من شرور أنفسهم، فإن في مجالستهم إفاضة لعلومهم وخلقهم على مريدتهم.

اعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مُربّ ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته و يجعل مكانها خلقاً سنياً، ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويُخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته و يكمل ريعه، ولا بد للسالك من شيخ يؤدّه و يرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولاً للإرشاد إلى سبيله¹⁹.

الثاني: ألا يصادق إلا صدوقاً متديناً شجاعاً في قول الحق فيتخذ منه رقيباً على نفسه، يرى

18 ابو حامد الغزالي، ميزان العمل، ضبطه وقدم له: سليمان البواب، (منشورات دار الحكمة، دمشق وبيروت، 1986)، ص54-55.

19 ابو حامد الغزالي، أيها الولد، التحقيق، جميل إبراهيم حبيب، (مكتبة وهبة، القاهرة 1981) ص. 32.

منه عيوبه ؛ لأن المؤمن مرآة أخيه ، فيلاحظ أحواله وأقواله وينبّه إلى ما يراه من عيوب ومساوئ .

الثالث : أن يستفيد من ذكر عيوبه على السنة أعدائه ، فإن العادة جرت على أن العدو مهتمّ بالبحث عن العيوب والتحدث بها وربما التهويل من شأنها والمبالغة فيها ، فعلى المرء أن يجعل ذلك مرآة ينظر فيها إلى ما يذكره العدو ، فما كان صحيحاً ، حاول أن يتخلص منه وما كان خطأ احتسبه عند الله .

رابعاً : أن يخالط الصالحين من الناس ، فما رآه مذموماً على ألسنتهم ، اتهم نفسه به ؛ لأن الطبائع متقاربة ويحاول أن يحاسب نفسه للتخلص من هذه العيوب ، وإن صدق المرء في ذلك ، فإنه يكون قد بدأ الطريق في إصلاح ذات البين ، فيحظى بالجوهر الإلهي ، فيأخذ الله بيده إلى شاطئ الأمان ويرقى في سلم الهداية ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .²⁰

وقد عالج الغزالي سلوك الإنسان عن طريق تغيير الاخلاق ومعالجة الهوى في النفس والبدن ، حيث قال : « اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهدى بأخلاقها ، وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة ، تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل في خزانة التخيل ، لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة ، وليس من غرضنا بيان تلك العلاقة ، ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه . فإن النفس إن كملت وكانت زاكية ، حسنت أفعال البدن ، وكانت جميلة ، وكذا البدن ، إن جملة آثاره ، حدث منها في النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية ، فإذا الطريقة إلى تزكية النفس اعتماد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة ، حتى إذا صار ذلك معتاداً بالتكرار ، مع تقارب الزمان ، حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال ، وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع » .²¹

وبين الغزالي كيفية الوصول إلى السلوك المرغوب فيه ، حيث أورد : « فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فطريقة أن يتكلف تعاطي فعل الجواد ، وهو بذل المال ، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه ، فيصير بنفسه جواداً . وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع ، وغلب عليه التكبر ، فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة » ،²² فالغزالي هنا يركز على المجاهدة وتعويد النفس على الفضيلة وترويضها وهذا يتطلب الإيمان والصبر والعبادة وحب الخير .

ويربط الغزالي العلم بالممارسة ، بمعنى أن يكون السلوك منسجماً مع طبيعة العلم المراد

20 أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، (دار المعرفة ، بيروت) ، ج 3 ، ص 62-98 ، مع تصرف وزيادة .

21 الغزالي ، ميزان العمل ، ص 56

22 المرجع نفسه ، ص 57

تعلمه « وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس، فلا طريق له إلا ممارسة الفقه وحفظه وتكراره. وهو في الابتداء متكلف، حتى ينعطف منه على نفسه وصف الفقه، فيصير فقيه بمعنى أنه حصل للنفس هيئة مستعدة، نحو تخريج الفقه، فيتيسر له ذلك طبعاً مهما حاوله. وكذلك الأمر في جميع صفات النفس، وكما أن طالب رتبة الفقه لا يحرم هذه الرتبة بتعطيل ليلة، ولا ينالها بزيادة ليلة، فكذلك طالب كمال النفس لا ينالها بعبادة يوم، ولا يحرمها بنقصان يوم. ولكن تعطله في يوم واحد، يدعو إلى مثله. ثم يتداعى قليلاً قليلاً، حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل فيفوته فضيلة الفقه»²³.

ولما كان رأي الغزالي في السعادة تزكية النفس وتكميلها فهو يرى أن هذا التكميل لا يتأتى إلا باكتساب الفضائل وأن الفضائل تنحصر في معنيين؛ جودة الذهن وحسن الخلق «ما جودة الذهن فليميز بين طريق السعادة والشقاوة، فيعمل به، وليعتقد الحق في الأشياء على ما هي عليه، عن براهين قاطعة مفيدة لليقين، لا عن تقليدات ضعيفة، ولا عن تخيلات مقنعة واهية. وأما حسن الخلق، فبأن يزيل جميع العادات السيئة، التي عرّف الشرع تفاصيلها، ويجعلها بحيث يبغضها، فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات. وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها»²⁴.

فالتربية السلوكية تتجلى في منطلق الغزالي باكتمال السعادة حيث يتطلب الأمر إعمال العقل والاعتماد ومن ثم حسن الخلق والسلوك المرغوب فيه تطبيقاً لهذا الاعتقاد، كما أنه يبين صفات سلوك المسلم باتباع حسن الخلق وبغض العادات السيئة ثم تجنبها.

وقد ربط الغزالي السلوك بالظواهر العلمية وهو ما تنادي به بعض النظريات الحديثة في تفسيرات سلوك الإنسان « ينبغي أن تعلم أن علاج النفس بمحو الرذائل عنها وبكسب الفضائل، مثاله علاج الأبدان بمحو العلل عنها، وبكسب الصحة لها. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعترى العلة المغيرة للاعتدال بعوارض الأغذية وغيرها، فكذا كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه. والمقصود أنه بالتعليم والاعتقاد يكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة، وإنما تكتمل بالتنزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن، إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، فإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذا النفس منك إن كانت زاكية، طاهرة، مهذبة الأخلاق، فينبغي أن تسعى لحفظ صحتها وجلب

23 الغزالي، ميزان العمل، ص 57-58

24 المرجع نفسه، ص 59

مزيد قوة وصفاء إليها»²⁵.

وإذا كانت النظريات الحديثة قد شخصت السلوك ودوافعه لكنها رغم المقاييس الحديثة لم تضع العلاج الشافي لانحراف السلوك عملياً كما فعل الغزالي : « وكما أن العلة المغيرة للاعتدال ، الموجبة للمرض ، لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت من حرارة في البرودة وبالعكس ، فكذا الرذيلة الموجبة لنقصان النفس ، علاجها بضدها ، وعلاج الجهل بالتعلم ، والبخل بالتسخي تكلفاً ، والكبر بالتواضع تكلفاً ، والشره بالكف عن المشتهى تكلفاً »²⁶.

كما حدد الغزالي طرق علاج السلوك بأسلوب علمي ووضع معياراً للأخلاق يستعين به المدرس في تعديل وبناء سلوك طلابه «إن النقيض الذي يعالج به الأخلاق لا بد له من عيار وكما أن عيار الدواء مأخوذ من عيار العلة ، حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، وإن كانت الحرارة ، فما درجتها ، فهي ضعيفة أو قوية ، فإذا عرف التفت معه إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان والصناعة التي المريض بصددها وعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع ، الذي يطلب نفوس المريدين والمسترشدين ، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ، ما لم يعرف أخلاقهم . فإذا عرف ما هو الغالب على المريد من الخلق السيء ، وعرف مقداره ، ولاحظ حاله وسنه ، وما يحتمله من المعالجة ، عيّن له الطريق . ولذلك ترى الشيخ يشير على بعض المريدين أن يخرج إلى السوق للكديبة وذلك أن توسم فيه نوع رياضة وتكبر ، فيعالجه بما يراه ذلاً ، وهو نقيض خلقه ، حتى ينكسر به تكبره »²⁷.

وإذا كان الغزالي قد ربط بين المرض والعلة والعلاج في السلوك فإنه لم ينس أصحاب السلوك المرغوب فيه وكيفية المحافظة عليه واستمراريته «الغرض أن تنظر ، أيها المتشوق إلى ترقية نفسك في أخلاقك . فإن كانت مهذبة فاحفظها ، وإن كانت مائلة فقومها بالرد إلى حد الاعتدال ، على ما سيأتي تفصيله ، فإن المقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين ، إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التي تلحقها بعوارض البدن ، حتى لا تلتفت إليها بعد المفارقة ، عاشقة ومتأسفة على قوتها ، وممنوعة بالاشتغال والتألم بها عن السعادات اللائقة بجوهرها»²⁸.

أضف لما تقدم فقد بحث الغزالي في أثر التعليم في تغيير السلوك ، فالأساس الذي تقوم عليه فلسفة التعليم عند الغزالي هو تحقيق السعادة للإنسان ، والسعادة المقصودة هي السعادة الأخروية ؛

25 الغزالي ، ميزان العمل ، ص 61.

26 المرجع السابق ، ص 61- 62.

27 الغزالي ، ميزان العمل ، ص 62.

28 المرجع السابق ، ص 63.

لأنها شاملة لكل ما هو مرغوب فيه، ولبلوغ السعادة المنشودة لا بد من تظافر العلم والعمل بحيث ينتج عن هذا التظافر تغيير في السلوك، وما لم يتغير السلوك لا تتحقق السعادة فإن قلت فكم طالب رديء الأخلاق حصل العلوم فما أبعذك عن فهم العلم الحقيقي الديني الجالب للسعادة، فما يحصله صاحب الأخلاق الرديئة حديث ينظمه بلسانه مرة وبقلبه أخرى وكلام يردده، ولو ظهر نور العلم على قلبه حسنت أخلاقه»²⁹.

ويوظف الغزالي العلم لتغيير السلوك الإنساني إلى درجة رفعه بعلمه إلى مصاف الملائكة، وحط بالإنسان الذي لا يستعمل عقله وعلمه إلى طبقة البهائم، حيث أورد: «وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل نباتات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكاً وربانياً كما أخبر الله تعالى عن صواحيب يوسف عليه السلام بقوله: «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم»³⁰ ومن صرف همته إلى أتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثوراً وإما شرها كخنزير وإما ضرباً ككلب أو سنور أو حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد»³¹.

أشار الغزالي في مواضع مختلفة إلى العلم بالعمل حيث أن العلم لا ينفع لصاحبه بلا عمل وركز على هذا الموضوع في كتابه أيها الولد، مثل:

أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون، واعلم أن العلم الذي لا يُبعذك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة، ولن يُبعذك غداً عن نار جهنم.³²

29 المرجع السابق، ص 109.

30 سورة يوسف، آية 31.

31 الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 10.

32 ابو حامد الغزالي، أيها الولد، تحقيق جميل إبراهيم حبيب، ص 31.

ومن خلال ما تقدم يتبين أن الغزالي دعا إلى تركية النفس وصولاً إلى السلوك المطلوب ، وذلك بالابتعاد عن المعاصي وممارسة الطاعات .

وللغزالي طريق آخر في معالجة الخلق المذموم وهو طريق الوقاية منه قبل وقوعه ، و يكون ذلك بالابتعاد أسباب هذا الخلق أو مشيراته من بواعث خواطر ووساوس مختلفة . وبالتعود على ممارسة الأخلاق الحسنة و الإبتعاد عن الأخلاق السيئة . ويبدأ هذا منذ الصغر ، ولذلك أفرد الغزالي له بحثاً خاصاً بعنوان « في رياضة الصبيان في أول نشوئهن ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم » .³³ لا شك أن شخصية المرء التي يعكس على سلوكه يتجسد في طفولته . و يركز الغزالي على أهمية هذه المرحلة و يطرح التطبيقات المختلفة لهذه المرحلة المهمة .³⁴

الخلاصة

تبين من خلال البحث أن الغزالي قد اهتم بأسباب السلوك ، وقد سار الغزالي في علاج أمراض القلب وتعديل السلوك وكان نبراسه القرآن الكريم وسنة النبي المطهرة ، وقد كشف البحث أن الغزالي قد تحدث عن تغيير السلوك السيئ من خلال رياضه النفس وتعويدها على الخلق الحسن المضاد للخلق السيئ وحمل النفس على إتباع السلوك السليم ، وكان الغزالي ينصح بالتدرج من أجل اقتلاع أسباب السلوك السيئ المتأصل في النفس ، ويستمر التدرج في العلاج حتى التخلص من السلوك السيئ نهائياً .

المراجع

القرآن الكريم .

أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية) .

أبو حامد الغزالي ، أيها الولد ، تحقيق جميل إبراهيم حبيب .

أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ضبطه وقدم له : سليمان البواب ، (دمشق وبيروت ، منشورات دار الحكمة ، 1986) .

أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، (بيروت ، دار المعرفة) .

أبو حماد ناصر الدين ، تعديل السلوك الإنساني وأساليب حل المشكلات السلوكية ، (إربد ، عالم الكتب ، 2008) .

33 عبد الكريم العثمان ، الدراسات النفسية عند المسلمين وغزالي بوجه خاص ، (مكتبة وهبة ، القاهرة 1981) ، ص 383 .

34 انظر ، Mahmut Çamdibi, Şahsiyet Terbiyesi ve Din Eğitimi, (Çamlıca Yay. 2011), s.227.

- أنور الجندي، نوابغ الفكر الإسلامي، (بيروت، دار الرائد العربي، 1972).
- البخاري، الأدب المفرد، التحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت، دار البشائر العلمية، 1997)
- جمال الخطيب، تعديل السلوك، (عمان، جامعة القدس المفتوحة، 1997).
- سنن ابن ماجه، التحقيق: بشار عواد معروف، (بيروت، دار الجليل، 1998).
- سنن الترمذي، التحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت).
- سنن النسائي، التحقيق: فارق حمادة، (بيروت، دار الكلمة الطيب، 2001).
- صحيح مسلم، التحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، دار الإحياء، 1991).
- شادية أحمد، التل، علم النفس التربوي الإسلامي، (عمان، دار النفائس، 2005).
- عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند العرب والغزالي بوجه خاص، (القاهرة، مكتبة وهبة، 1962).
- محمد يوسف موسى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، (القاهرة، مؤسسة الخانجي، 1994).
- محمد أحمد جاد صبح، التربية الإسلامية [دراسة مقارنة] . (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1987).
- Çamdibi, Mustafa, "Şahsiyet Terbiyesi ve Din Eğitimi", (İstanbul: Çamlıca Yayınları, 2011).